

مصر البيزنطية



إعداد: هشام الجبالي

المشهور

مؤلفات السيد محمد باقر

مرحباً باصدقائى فى كل بقعة من أرض مصر.
أسمى «نيل» وُجِدَتْ منذ أن شق النهر مجراه فى أرضنا فجلب
لها الخصب والنماء، عشت كل هذه القرون بينكم أصحاب أجدادكم
القدماء فى رحلات البناء الطويلة، وأرافق أباكم فى مسيرة العمل
من أجل رقى مصر وتقدمها، أشاركهم أحزانهم وأسى لهزائمهم،
أسعد بإنجازاتهم وأشيد بانتصاراتهم، أعشق كل ما هو مصرى
فأطوف بأرجاء البلاد شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، أبحث عن كل
جديد، عن كل بناء وتقدم، أقضى النهار أبحث أبنائها على بذل
المزيد من الجهد، وأمسى لأحلم لها بغد أكثر إشراقاً ومستقبلاً يملأه
الرقى والتحضر، أعتقد أن أصحاب الشيخ كثير النشاط والحركة
«تاريخ» كلما جاء لزيارة أرضنا، أقص عليه أخبارها وأقدم له
المساعدة ليسجل لها فى أوراقه جهد أبنائها وشموخ حضارتها،
لهذا ستجدونى معكم عبر حكايات «تاريخ» وحوادث مصر
وأخبارها.



موسوعة تاريخ مصر

الجمع التصويرى : المكتب العربى للمعارف

الإخراج : المكتب العربى للمعارف

رقم الإيداع : ١٩٩٤/٥٤٤١

الترقيم الدولى : I.S.B.N:977-276-018-5

المُحرر : هشام الجبالى

الرسوم الداخلية : علاء حجازى

ماتى طه - إيهاب وصفى

المراجعة اللغوية : شوقى ميكل

موسوعة سلطنة مصر

مصر البيزنطية



إعداد: هشام الجبال
كتب عربى

(شراء)

البقايا
للشؤون

YCA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

رقم التسجيل

٦٧٧٧٥

تمضى الأعوام تلو الأعوام ولا تزال
بلادكم تحيا مكبله بقيود الاحتلال
الرومانى تعاني وهى بلاد الفراغة
العظام من تسلط حكام أجانب
فرضوا عليها سلطانهم واستولوا
بقوتهم على الجانب الأعظم من ثرواتها
وكنوز أراضيها، تهب فى أرجائها
رياح الرفض والغضب وتشتعل فى
صدور أبنائها نيران الثورة فتواجه
بجيوش روما وبطش جنودها، وتدخل
المسيحية إلى ربوعها وتجدر على طول
الوادي والدلتا من يؤمن بمبادئها
ويعتنق تعاليمها؛ فتقابل باضطهاد
الأباطرة والولاة للمسيحية والمسيحيين،
ذلك الاضطهاد الذى وصل فى عهد
الإمبراطور ديكْيوس عام ٢٤٩ إلى
حدّ توعد كل أتباع المسيحية بالتعذيب
والقتل، مما أدى إلى فرار الكثيرين
منهم إلى مستنقعات الدلتا وكهوف
الصحراء.

وإن كانت الإمبراطورية الرومانية
قد عاشت سنوات رفعتها وازدهارها
واحدة من أعظم وأكبر الممالك التى
شهدها العالم على وجه العموم ما بين
استيلاء قائدها أكتافْيوس على حكم
مصر عام ٣٠ قبل الميلاد ووفاء
إمبراطورها مارك أوديليوس عام
١٨٠، فإنها سرعان ما سقطت مع
بداية القرن الثالث الميلادى إلى هوة
الضعف والانهيار، وبقدر ما تميّز عهد
ازدهارها باستقرار السلطة وقوة
الإدارة المتحكمة فى شئون عدة أقاليم
مختلفة تمتد من سواحل المحيط
الأطلسى غرباً إلى ضفاف نهر الفرات
شرقاً، بقدر ما عانت شعوبها ومن
بينها أمم عريقة متحضرة كالمصريين
واليونانيين من فساد الإدارة وتدهور
الحياة الاقتصادية التى كانت قد نالت
شيئاً من الانتظام والنهضة طوال
القرنين الأول والثانى الميلاديين، ومع
مرور الوقت وتتابع الأباطرة لم تزد



قصر الإمبراطور هادريان - روما

الأوضاع في روما إلا
اضطراباً وتدهوراً،
حيث تحكمت جيوش
الإمبراطورية في شئون
الحكم وتدخل قاداتها في
أمر العرش، ينصبون
الاباطرة تارة ويعزلونهم
أو يقتلونهم تارة أخرى،
لتبدأ منذ أواسط القرن
الثالث الميلادي سلسلة

تكون لنفسها ملكاً واسعاً وإمبراطورية
جديدة بغزوها لأرض مصر عام ٢٦٩،
ولكن تدمر ما كادت تهناً باستيلائها
على درة التاج الروماني، حتى خاض
الإمبراطور أوريليان حرباً قاسية مع
جيوشها وتمكن من هزيمتها والقضاء
على قوتها مستعيداً حكم بلاد القراعنة
من جديد.

وفي الوقت الذي دارت فيه المعارك
بين أوريليان وملكة تدمر كانت آخر
زياراتي لبلادكم، حيث علمت بنبا

متصلة من الاباطرة العسكريين الذين
تأتى بهم المؤامرات والانقلابات
المتلاحقة، وليؤدى ضعف الإمبراطورية
وانشغال حكامها بما أصابها من
ضعف وفوضى إلى تشجيع بعض
أقاليمها على الثورة ومحاولة الاستقلال
والتخلص من السيطرة الرومانية،
وعلى رأس هذه الأقاليم كانت تدمر
تلك الإمارة التجارية الصغيرة التي لم
تكتف بالاستقلال وتهديد وحدة
إمبراطورية روما، بل راحت تحاول أن

انتصار الرومان، ورأيت كيف استطاعوا أن يستعيدوا سيطرتهم على جميع أقاليم إمبراطوريتهم في الشرق بما فيها مصر وتدمر، غير أن هذا الانتصار على أهميته لم يك كافياً لمنع سقوط روما ووقف سيرها صوب التدهور والانهيار؛ وذلك ما تأكد لدى بعد ما تركت مصر مواصلاً رحلاتي وجولاتي التي لا تنتهى.

ففى الشرق رأيت كيف قُدر للفرس أن ينهضوا من جديد تحت حكم الأسرة الساسانية التى جلس أفرادها على عرش فارس منذ عام ٢١٢، ومنذ ذلك التاريخ راح العالم يستقبل قوة جديدة وإمبراطورية ناهضة يزداد نشاطها وتمتد حدودها عاماً من بعد عام، بينما يمضى نجم الإمبراطورية الرومانية صوب الانحسار والأفول، وحينما اكتملت القوة الفارسية وصارت خطراً جارفاً يديق ويعنف أبواب الشرق، كانت روما قد لفظت

أنفاسها الأخيرة فلم يعد باقياً من اتحاد أراضيها الشاسعة بعد سقوطها وانقسام أقاليمها الغربية بين الموجات البشرية المهاجرة إلى جنوب وغرب أوروبا عام ٤٧٦ سوى الأقاليم المنتظمة فى عقد الإمبراطورية البيزنطية التى ورثت ملك الرومان وأملأهم فى الشرق، وقبل أن يأخذنى الحديث عن كيفية انهيار الإمبراطورية الرومانية وقيام إمبراطورية بيزنطية؛ فيشغلنى ذلك عن إخباركم بما كان من أمر بلادكم طوال هذه الأعوام الطوال، دعونى أقص عليكم أحداث زيارتى التالية لها وستعلمون دون شك مما ساقصه عليكم ما جرى فى جنبات العالم خلال هذه الفترة المضطربة من حياة الإنسانية.

فى منتصف عام ٤٩٨ وقبل أن يستقر عزمى تماماً على الذهاب إلى مصر، كنت فى القسطنطينية عاصمة بيزنطة أشاهد استعراض الإمبراطور

بلادنا فى أسواقِ عاصمةِ
الإمبراطورية البيزنطية.

فقلتُ له: أعلمُ أن الصناعةَ فى
بلادكم قد خرجتْ مع بدايةِ عهدِها
الرومانى من العثراتِ المتعاقبةِ التى
لَحِقَتْ بها فى عهدِ ضعفٍ وانهيارِ
الدولةِ البطلميةِ، أعلمُ كذلك أن كثيراً
من الازدهارِ الذى اكتسبته وقتَ



خرائب تدمر

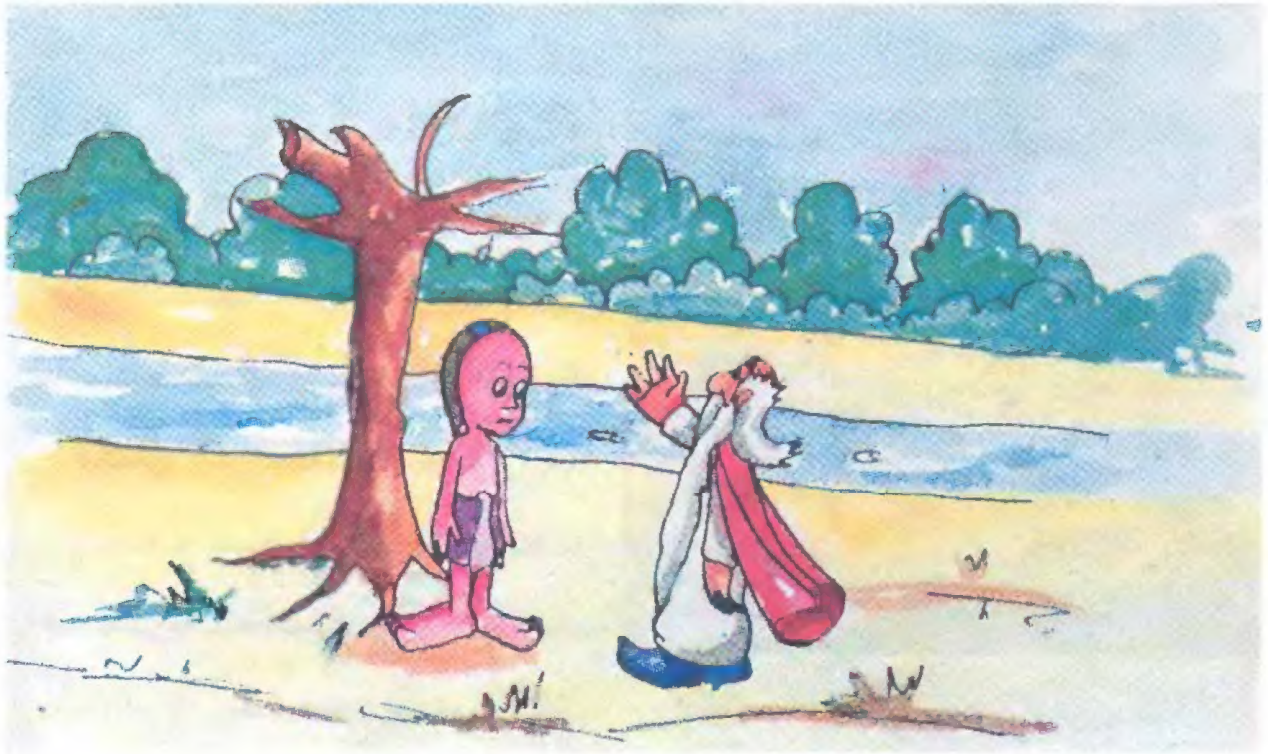
أناستاسُ لبعضِ فرقِ جيوشه فى
احتفالٍ مهيبٍ بساحةِ الاحتفالاتِ
العامةِ التى ازدحمت بالمشاهدين من
مختلفِ أقاليمِ الإمبراطوريةِ، ووسطَ
الجموعِ المزدحمةِ وبجانبِ مسلةِ
فرعونيةِ شاهقةٍ زُيِّنَتْ بها ساحةُ
الاحتفالاتِ، التقيتُ بأحدِ التجارِ
المصريين، فما كُدتُ أعلمُ أنه قادمٌ لتوِّهِ
من مصرَ حتى أطلتُ من رأسى
علاماتِ الاستفهامِ تنبئُ عن شغفى
البالغِ إلى معرفةِ ما دار فى بلادكم
خلالَ أكثرَ من مائتى عامٍ مضت على
آخرِ زيارتى لها، ذلك الشغفُ الذى
جعلنى أمسكُ بيدِ هذا المصرىِّ
مبتعداً عن ضجيجِ الاحتفالِ، لأتوجَّهَ
إليه متسائلاً: ترى هل جئتُ إلى
القسطنطينيةِ لممارسةِ أعمالِ التجارة؟
فقال: أجل، لقد جئتُ إلى هنا
بصحبةِ مجموعةٍ من تجارِ
الإسكندريةِ لنعرضَ بعضَ مصنوعاتِ

استقرار الإمبراطورية الرومانية وقوتها
عادت تفقده في أوقات اضطرابها
وضعفها، فما الذي حدث لها في ظل
حكم الإمبراطورية البيزنطية؟

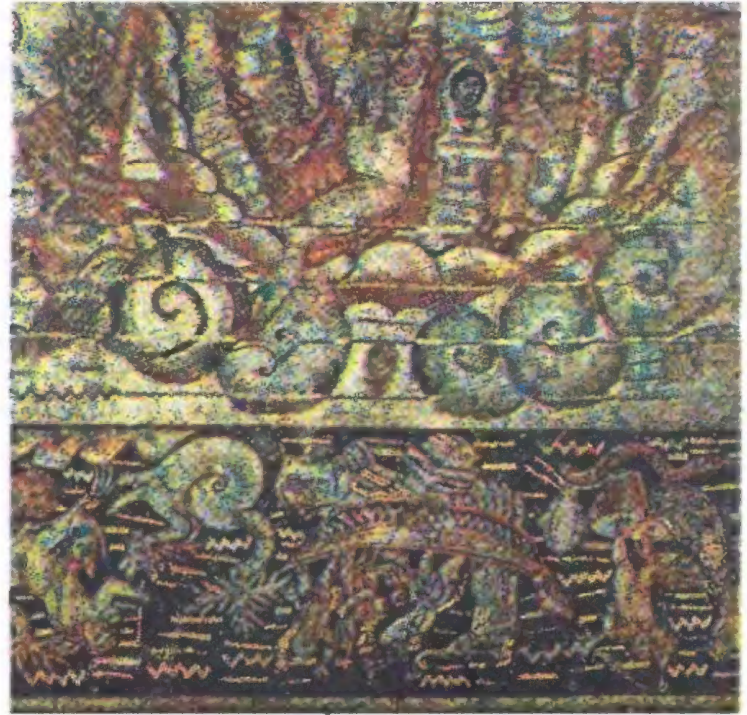
فقال: لقد انتقلت بلادنا من
الخنوع لحكم أباطرة روما إلى
الوقوع تحت سيطرة أباطرة
القسطنطينية، فلم يؤثر ذلك الانتقال على
استمرار تدهور صور الحياة في
أرجائها، يجل لها كل يوم جديد
المزيد من التدهور لحياتها الزراعية

والتجارية والصناعية التي على الرغم
من سوء أوضاعها في ظل الحكم
البيزنطي لم تصل بعد إلى حد الانهيار
الكامل، فكما ترى ها نحن نخرج إلى
اليوم بتجارتنا إلى مختلف أسواق
العالم لنعرض بها ما تصوغه أيدي
الصناع المصريين من منتجات
متنوعة.

فقلت له: وهل ظلت الإسكندرية
تتمتع بشهرتها القديمة كواحدة من
أرقى المراكز الصناعية في العالم تحت



تمتعت الإسكندرية طوال
عهودها الماضية بشهرة
فاقت الكثير من عواصم
العالم ومراكز حضارتها،
وامتازت منتجاتها
الصناعية بحسن الصنعة
وروعة المظهر، ولكن ما من
شك في أن مكانة
الإسكندرية قد تأثرت بما
أصاب صور الحياة في
البلاد من تدهور منذ مطلع



فسيفساء بيزنطية

القرن الثالث الميلادي وكذلك تأثرت
صناعاتها بذلك التدهور تأثراً عظيماً.

فقلت له: وكيف كان ذلك التأثير؟

فقال: بسبب سوء أحوال البلاد
تحت الحكم البيزنطي من ناحية
وتصاعد قوة المنافسة الخارجية من
ناحية أخرى، تراجعت جودة وأهمية
ما تصنعه الإسكندرية من أنية
زجاجية كانت لها بالأمس المرتبة
الأولى بين ما ينتجه العالم أجمع،

حكم أباطرة بيزنطة؟

فقال: منذ أن وضع الإسكندر
المقدوني أساس مدينته المصرية على
ساحل البحر المتوسط، راحت
الإسكندرية هذه المدينة المتألقة الشابّة
تؤدي دوراً أساسياً ومهماً في حياة
مصر كعاصمة لها طوال العصرين
البطلمي والروماني والبيزنطي من
بعدهما وكأكبر مركز حضاري
وصناعي وتجاري على أرضها، وقد

وكذلك أدى انتشار استخدام رقائق
الجلد في الكتابة إلى عدم العناية
بإنتاج الأنواع الراقية من أوراق
البردي، وكما تراجعت صناعة الزجاج
ورق البردي فقدت صناعة النسيج
الكثير من أهميتها وقيمتها، ومع هذا لم
يوقف ما تعانيه مصر من ضيق
اقتصادي الإدارة البيزنطية عن
استغلال محاجر البلاد ومناجمها، بل
لقد نشطت هذه الإدارة في استغلال
المحاجر المنتشرة على سواحل البحر
الأحمر يجلبون منها الأحجار الجيرية
الملساء ليشيّدوا بها أبنية الحكم
 والمنشآت العامة، وكذلك توسعت في
استغلال مناجم شبه جزيرة سيناء
والصحراء الشرقية وجنوب الوادي،
كما استخرجت الزمرد من أسوان
والعقيق من أرمنت وغيرهما من
الأحجار الكريمة التي تزخر بها أرض
الوادي والدلتا ليقوم صناع
الإسكندرية بصياغتها وتصديرها إلى

الأسواق العالمية.
فقلت له: هذا عن الصناعة، فماذا
عن تجارة بلاد الفراعنة في العصرين
الروماني والبيزنطي؟
فقال: قامت في بلادنا مع بداية
عهد الروماني نهضة تجارية عظيمة،
فقد ضمت روما إلى إمبراطوريتها
عدداً كبيراً من بلدان العالم وأوطانها
في وحدة سياسية مترابطة يسرت بين
أرجائها الانتقال والتواصل؛ فكان من
الطبيعي أن تتميز مصر بين أقاليم
هذه الإمبراطورية بموقعها الفريد الذي
يتوسط طرق التجارة بين الشرق
والغرب، وشبكة مواصلاتها التي يربط
النهر بين أطرافها، وكذلك ما اتبعته
الإدارة الرومانية من عدم تقييد
نشاطها التجاري مكتفية بمراقبة
تجارتها وتحصيل ما يقدر عليهم من
ضرائب، كل ذلك جعل من بلادنا في
عهد الروماني مركزاً من أهم مراكز
التجارة في العالم بأسره، فلم تقتصر



تجارتها في هذه
الفترة على ما يرد
إليها من مواد
أولية من مختلف
بقاع الدنيا تقوم
بتصنيعها قبل أن
تعود فتصدرها
من جديد، وكما
كانت مصر منذ
فجر حضارتها
وطوال عهودها
الماضية متميزة
بعظم ما تصدره

من فائض إنتاجها إذ ما قورن بما
تحتاج إلى استيراده من خارج
حدودها، ظلت تتمتع بتلك الميزة طوال
عهد الرومان.

فقلت له: وما دام الأمر كذلك، لماذا
لم يرتق مستوى معيشة المصريين في
المدن والقرى على طوال الوادي والدلتا
إلى نفس الدرجة التي ارتقت إليها

تجارتهم في العصر الروماني؟
فقال: لم يحدث ذلك لأن ما كانت
ترسله بلادنا إلى روما من جزية كان
يلتهم جزءاً كبيراً من أساس تجارتها
الخارجية، علاوة على أن ما كانت
تفرضه الإدارة الرومانية على تجارتها
من ضرائب كان يقتص جانباً من
عائد النشاط التجاري الذي يذهب

الفائضُ منه إلى أيدي التجارِ
الرومانيين الذين استأثروا بمعظم
أعمال التجارة في الإسكندرية.

فقلتُ له: حسناً، وهل استمرت
التجارة المصرية محتفظةً بذلك النشاطِ
الكبير تحت حكم أباطرة بيزنطة؟

فقال: إن الثروات والامتيازات التي
حقّقها تجارُ الإسكندرية في فتراتِ
نشاط تجارتهم ونهضتها، كانت غايةً
في الضخامة حتى أنهم احتكروا
التجارة الشرقية لأنفسهم، كما أن
أسطولهم التجاري في البحر المتوسطِ
كان الأول بين أساطيل جميع ولايات
الإمبراطورية الرومانية، وقد جعلهم
ذلك يتمسكون بما حققوه من مكانةٍ
بكل ما امتلكوا من قوةٍ ونفوذٍ وثراءٍ،
مما ساعدهم على الاحتفاظِ ببعضِ
امتيازاتهم ونشاطهم تحت حكم
أباطرة بيزنطة، حيث استمر اتصالنا
بالشرق وبلاد العربِ دون انقطاعٍ،
واستمرَّ عملُ خطوطِ تجارتنا في

البحر المتوسطِ وإن كان خطُّ تجارتنا
الرئيسي في هذا البحر قد تحول من
روما إلى القسطنطينية، وما زالت أهمُّ
صادراتنا هي القمح والكتان والبردي
والمنسوجات والزجاج، إلى جانبِ
العطور والتوابل والعاج، أما أهمُّ
وارداتنا فلا تزال هي الفضة والحديدُ
والأخشابُ.

وعلى الرغم من وفرة ما يعلمه ذلك
التاجر المصري عما وصل إليه حالُ
الصناعة والتجارة في بلادكم، لم يكُ
لديه الكثير الذي يقصّه على عما جرى
فيها من أحداثٍ منذ آخر زيارتي لها
وحتى يوم لقائي به، لذلك لم أجدُ
أمامي مفراً من التعجيل بزيارتي
التالية لها، حيث وصلتُ إلى
الإسكندرية قبل نهاية نفس العام، ومن
الإسكندرية بدأتُ رحلةً طويلةً شاقةً
في البحث عن نيل.

ثلاثة أشهرٍ كاملة مضت وأنا أنتقلُ
بين شمال مصر وجنوبها دون فائدةٍ

قبل أن أعلم بالصدفة عن وجوده في إحدى قرى الدلتا، وحينما ذهبتُ إلى هذه القرية وجدته جالساً في إحدى دُورها ومن حوله عددٌ كبيرٌ من الزراع يحدثهم بانفعالٍ وحماسٍ شديدين عن أمجادِ أجدادهم وعراقة تاريخهم محفّزاً إياهم على عدم التفريط في

أرضهم أو التنازل عن ملكيتها، بينما راح جميعٌ من حوله ينصتون له بمزيدٍ من الاهتمام والإعجاب، وبالطبع لم أستطع فهم شيء مما يدور، وكذلك لم أستطع أن أقطع على نيل انشغاله البالغ بالحديث إلى هؤلاء الزراع المصريين، فجلستُ قريباً منهم دون أن

أنطق بكلمة واحدة، حتى إذا ما انتهى نيلٌ من حديثه وتفرّق كلُّ الزراع إلى دُورهم بعدما اتفق الجميع على التمسك بما يمتلكونه من أراضٍ وريثوها عن آبائهم وأجدادهم جيلاً من بعدٍ جيل،



قطعه من النسيج المصري - القرن الخامس

اقترب منى قائلاً: مرحباً بك يا أبتي،
لأبد وأنت تريد أن تعرف سبب ما دار
أمامك الآن؟

فقلتُ له: بالطبع، ولكننى أودُّ أن
أعلم أولاً كلَّ ما جرى فى بلادكم منذُ
أن استردَّ الإمبراطورُ الرومانىُّ
أوريليانُ حكمَها من أيدى ملكةٍ تدمُرُ
وجيشِها عامَ ١٧١ وحتى اليوم.

فقال: لقد استردَّ أوريليانُ حكمَ
بلادنا وانتصرَ على جيوشِ تدمرَ وأسرَ
ملكَتها، لكنه لم يستطعْ مع كلِّ ذلك أن
يضمنَ أمنَ وسلامةَ أقاليمِ
إمبراطوريَّتهِ فى الشرقِ ضمناً تاماً،
إذ سرعانَ ما اشتعلتِ الثورةُ فى تدمرَ
ومصرَ عامَ ٢٧٢ حيثُ قاد ثورةَ
المصريين فيرموسُ أحدُ كبارِ تجارِ
الإسكندريةِ بعدما تمكَّنَ من أن يكونَ
لنفسِهِ جيشاً خاصاً معتمداً على ما
يملكه من أموالٍ طائلةٍ كان قد جمعها
من تجارةِ البودى، وأمامَ خطرِ هاتينِ
الثورتينِ اضطرَّ أوريليانُ إلى التوجُّه

إلى تدمرَ والقضاءِ على ثورتِها، ثم
تحوَّلَ إلى الإسكندريةِ محاصراً
فيرموسَ وجنوده فى الحىِّ الرئيسىِّ
وضيقَ عليهم الخناقَ، حتى اضطروا
إلى التسليمِ ولكن بعد أن دمرَ الحىُّ
تماماً بكل ما يحويه من أبنيةٍ
ومنشآتٍ.

فقلتُ له: وهل استقرَّ لروما حكمُ
أقاليمِ إمبراطوريَّتها فى الشرقِ بعدَ
ذلك؟

فقال: بعدَ قضائه على ثورةِ
فيرموسَ غادرَ أوريليانُ مصرَ تاركاً
برويوسَ أحدَ كبارِ قادة جيوشه بها
للقضاءِ على الاضطراباتِ التى كانت
قد اشتعلتْ فى جنوبِ الوادى، وفى
عامَ ٢٧٥، وبينما كان برويوسُ يعملُ
على قمعِ الاضطراباتِ فى الجنوبِ
توفى الإمبراطورُ أوريليانُ فانتهزَ
الجيشُ الرومانىُّ فى الإسكندريةِ
فرصةَ وفاته، ونادوا بالقائدِ برويوسَ
إمبراطوراً للبلاد، وقد تمكَّنَ برويوسُ

الميلادى، حتى إذا ما جاء عام ٢٨٤ وتولى الإمبراطور دقلديانوس الحكم بدأت تلك الإمبراطورية التى عبثت بها الاضطرابات فخلقتُها فى أقصى درجات الضعف والتدهور دون سلطة مركزية يُحسبُ لها حسابُ عهداً جديداً.

فقال: كان دقلديانوس واحداً من هؤلاء الأباطرة العسكريين الذين أتت بهم المؤامرات والحروب والدسائس، لكنه اختلف دون شك عن كل سبقيه من أباطرة بما تمتع به من مواهب فذة فى الحكم والإدارة، هذه المواهب التى أتاحت له القدرة على وقف تدهور الإمبراطورية وانتشالها من هوة الاضطرابات والفوضى بما سنه لها من قوانين وما ابتكره من نظم ظلت أساس الإدارة والحكم فى الإمبراطورية البيزنطية

من أن يفرض نفسه حاكماً لجميع أقاليم الإمبراطورية الرومانية طوال خمسة أعوام قضاهما فى خوض الحروب لتأمين حدود الإمبراطورية، فلم تُصَبْ مصرُ فى عهده تجسناً يذكر وظلّت تعاني من تدهور أوضاعها المستمر.

فقلت له : لقد قُتِلَ الإمبراطورُ برويوس بيد جنود الإمبراطورية الذين قتلوا من بعده ثلاثة أباطرة آخرين فى أقل من عامين، لتسود الفوضى وتتابع الانقسامات والحروب الداخلية التى كانت سمة مميزة للإمبراطورية الرومانية منذ بداية القرن الثالث



حتى اليوم.

فقلت له: أَجَلْ يَانِيلُ، فقد كان عهدُ دقلديانوسَ نقطةَ التحولِ من عصرِ انهيارِ الإمبراطوريةِ الرومانيةِ إلى عصرِ قيامِ إمبراطوريةِ بيزنطةِ التي صانَتْ كِيانَ هذا المَلِكِ الضخمِ من الأفولِ والاندثارِ، لقد نظرَ دقلديانوسُ فرأى اتساعَ رقعةِ إمبراطوريَّتِهِ وتعدّدَ مشاكلِهَا الداخليةِ والخارجيةِ إلى الحدِّ الذي يستحيلُ معه الإبقاءُ على وحدتِهَا تحتَ حكمِ إمبراطورٍ واحدٍ، فقام بتقسيمِهَا بينِ اثنينِ من الأباطرةِ هو في نصفِهَا الشرقيِّ والإمبراطورُ ماكسيميانُ في الغربِ، على أن يتنازلا معاً عن العرشِ لِنائِبَيْهِمَا في الحكمِ متى مرَّ على ولايَتَيْهِمَا عشرونَ عاماً، وتعدّدتْ بعدَ ذلكِ قوانينُهُ وإصلاحَتُهُ التي كان أهمُّهَا إصلاحُهُ لنظامِ الضرائبِ، حيثُ عَمِلَ على إلغاءِ النظامِ القديمِ الذي كان يختلفُ في قواعدهِ من إقليمٍ إلى آخرَ وابتدعَ نظاماً

ضرائبياً جديداً يقضى بفرضِ ضريبةٍ متساويةٍ على الأفرادِ والأراضيِ في جميعِ أرجاءِ الإمبراطوريةِ مع مراعاةِ اختلافِ درجةِ خصوبةِ هذه الأراضيِ وتنوعِ محاصيلِهَا، وقد ساعدتهِ دقّةُ الإحصاءاتِ التي قام بإنجازِهَا على تنفيذِ نظامِهِ الجديدِ في مهارةٍ ويسرٍ. فقال: ولاتَنسَ أيضاً أَنه لم يكتفِ بتقسيمِ الإمبراطوريةِ إلى قسمينِ أحدهما في الغربِ والآخرُ في الشرقِ، بل قام بتقسيمِ أراضىِ الإمبراطوريةِ إلى اثني عشرَ إقليماً كبيراً ثم قام بتقسيمِ كُلِّ إقليمٍ على حِدَةٍ إلى مجموعةٍ ولاياتٍ صغيرةٍ، حتى أن مصرَ صارتِ بذلكِ التقسيمِ ثلاثَ ولاياتٍ منفصلةٍ وإن كان لحاكمِ الولايةِ الأولى في الإسكندريةِ سلطانُ اسميٍّ على الولايتينِ الأخرينِ، وظلَّ هذا التقسيمُ سائداً إلى أن عادتِ إلى بلادِنَا وحدتُهَا السياسيةُ عامَ ٣٨٢.



شاهد أحد القبور المصرية - القرن الخامس

فقلتُ له: وعدا ذلك التقسيم، كيف
تأثرت مصرُ بإصلاحاتِ دقلديانوسَ
وقوانينه؟
فقال: مع سوءِ أوضاعِ
الإمبراطوريةِ كانت مهمةُ دقلديانوسَ
في الإصلاحِ عسيرةً للغاية، إذ كان
عليه أن يسنَّ القوانينَ والنظمَ ويراقبَ

قبل أن ينجح في التغلب عليهم
والقضاء على تمردهم مخلّفاً
الإسكندرية تعاني من تدمير أجزاء
كبيرة من أبنيتها، تدهور معيشة عدد
كبير من سكّانها، حتى أنه أمر
بمنحها جزءاً من قمح الجزية المرسل
إلى روما، وقد أظهر الإسكندريون
شكرهم على هذه المنحة بأن أقاموا له
نصباً حجرياً ضخماً على شاطئ
مدينتهم.

فقلتُ له : وماذا عن أوضاع
المسيحيين المصريين في عهد
دقلديانوس يانيل؟

تنفيذها في نفس الوقت الذي يحافظُ
فيه على أمن حدود إمبراطوريته
الشاسعة من كل خطر خارجي
ويضمن سلامتها من الثورات
والانقلابات في الداخل، وقد واجه
الاضطرابات على حدودها الجنوبية
واستطاع تأمينها بعد جهد شاق، ثم
راح يتفرغ للوقوف في وجه قائد
جيوشه أخيليوس الذي تزعم تمرّداً
للجند في الإسكندرية معلّناً من نفسه
إمبراطوراً للبلاد وتمكّن دقلديانوس
من محاصرة المتمردين داخل
العاصمة المصرية ثمانية أشهر كاملة



فقال : كانت حدة اضطهاد المسيحية والمسيحيين في مصر قد خفت تماماً منذ وفاة الإمبراطور ديكْيوس، فلما جاء دقلديانوس رأى أنه لكي يضمن وحدة إمبراطوريته وسلامتها في الداخل لابد وأن يقضى على كل الخلافات والانقسامات فيها، لذلك قرّر القضاء على المسيحية وأتباعها، لكنه لم يسارع إلى مواجهاتهم بالقوة في أول الأمر، بل ظل فترة طويلة من حكمه يحاول أن يوقف انتشار المسيحية

بدون اللجوء إلى القسوة والعنف، حتى إذا ما تأكّد من عدم جدوى محاولته راح ينزل على أتباعها صنوف الاضطهاد طول العامين الأخيرين من ولايته، وبعد اعتزاله الحكم استمر الاضطهاد على أشده ثمانية أعوام أخرى، وقد تعرّض أتباع المسيحية

المصريين في هذه الأعوام العشرة إلى اضطهاد فاق كل ما كانوا قد تعرّضوا له في عهد الإمبراطور ديكْيوس.

فقلت له : لقد أمضى دقلديانوس أعوام حكمه في حروب مستمرة وصراعات لا تنتهي، حتى إذا ما جاء عام ٣٠٥ كان قد بلغ

الستين من عمره وتغلّبت عليه الأمراض، كما أن مدة حكمه ومعه إمبراطور الغرب مكسيميان كانت قد أشرقت على الانتهاء

فتنازلا عن العرش لنائبيهما في الحكم أملاً في أن يواصل العمل على إصلاح شئون الإمبراطورية للنهوض بها من عثراتها المتلاحقة، ولكن ما إن اعتزل دقلديانوس الحكم حتى فقدت الإمبراطورية اليد الحازمة القوية وعادت تعاني من اندلاع النزاعات



قسطنطين الأول

الداخلية وتفشى الصراع حول السيادة والسلطة بين شقي الإمبراطورية في الشرق والغرب، ولم ينته ذلك الصراع إلا بانفراد إمبراطور الشرق قسطنطين الأول بحكم الإمبراطورية بأسرها عام ٣٢٤.

فقال : وأنت تعلم بالطبع ما كان من أمر قسطنطين الأول ومحاولة استكمال إصلاحات دقلديانوس.

فقلت له : أجل، فقد برزت شخصية قسطنطين الأول منذ أن تولى حكم الجانب الشرقي من الإمبراطورية عام ٣٠٦ واستطاع بما امتلك من مهارة عسكرية وإدارية أن يحسم الصراع الذي دار بعد اعتزال دقلديانوس الحكم لصالحه؛ ليسيطر ابتداءً من العام الثامن عشر لولايته على مقادير الإمبراطورية بأسرها بعد ما رأى أن إصلاحها ووقف انطلاقها صوب الانهيار الكامل لن يتحقق بتقسيمها وتوزيع السلطة العليا فيها بين

إمبراطورين واحد في الغرب والثاني في الشرق، كما أن الإصلاح لن يؤتي ثماره إلا في ظل حكومة مركزية قوية قادرة على تأكيد سلطانها في كافة أرجاء الإمبراطورية.

فقال : ولكن قسطنطين الأول لم يبق على سيادة روما ومكانتها، بل قام بنقل عاصمة ملكه إلى مدينته الجديدة في الشرق.

فقلت له : لكى يمنع انهيار الإمبراطورية الرومانية كان على قسطنطين الأول أن يبتعد بحكومته الجديدة قدر الإمكان عن روما وأقاليم الغرب التي أنهكتها المتاعب وأحدثت بها الأخطار من جانب وأن يقترب من الشرق بما يتميز به من ثراء اقتصادي واضح من جانب آخر، لذلك راح يتخذ قراره بنقل مركز الإمبراطورية من الغرب إلى الشرق وتشييد عاصمة جديدة للكه عند نقطة التقاء قارتي آسيا وأوروبا، وبعد أن

اختار لعاصمته موقعاً حصيناً كانت
توجد به مدينة صغيرة تسمى بيزنطة،
أسرع يجمع لها كل ما تحتاج إليه من
مهندسين وعمال ومواد بناء من شتى
بقاع إمبراطوريتها، وانتزع لتجميل

ميادينها وأبنيتها أجمل الآثار وأندر
النقائس من بلدان الشرق والغرب، وفي
عام ٣٣٠ افتتح قسطنطين الأول
العاصمة الجديدة التي أطلق عليها
اسمته، واستمر يعمل على النهوض

بشئون
الإمبراطورية
مركزاً جهوده
على جانبها
الشرقي الذي قدر
له بفضل أعماله
وإصلاحاته البقاء
في الوقت الذي
سقط فيه جانبها
الغربي وتحول
إلى مجموعة
أقاليم منفصلة.

فقال : لقد منع
قسطنطين الأول
إمبراطورية
الرومان من



لوجه من الغسيفساء الملون بإحدى كنائس بيزنطة

الانهيار الكامل، وساهم إسهاماً عظيماً فى إقامة حكومة القسطنطينية التى ورثت ملك روما، وظلّت إلى اليوم تسيطر على أقاليمها الشرقية ولكنه مع ذلك لم ينجح فى وقف تدهور صور الحياة فى هذه الأقاليم التى لاتزال تعاني وعلى رأسها مصر المسيحية .

فقال : لقد اعترف قسطنطين الأول بالمسيحية فضمن لها ولأتباعها الوجود والعمل الأمن داخل حدود إمبراطوريته، وقد اتبع أفراد أسرته الذين خلفوه فى الجلوس على العرش عام ٣٣٧ وكان منهم الأباطرة قسطنطين الثانى وجوفيان وقالنذ سياسة التسامح مع المسيحية، بل أن أكثرهم ناصر هذه العقيدة الجديدة وساعد على انتشارها فى جميع أقاليم الإمبراطورية البيزنطية، وفى عام ٣٧٩ انتهى حكم أسرة قسطنطين الأول وجلس الإمبراطور ثيودوسيوس الأول على العرش، فشغل الإمبراطورية

بالقضاء على العقائد القديمة فى كافة أرجائها، وقد نُفّذت سياسته فى مصر بكل قسوة وصرامة، حيث تولى رجال الإدارة البيزنطية فى الإسكندرية التى صارت أكبر ثانى مركز للمسيحية بعد القسطنطينية الوقوف فى وجه أتباع هذه العقائد، حتى أنهم قاموا بمهاجمة معبد السرابيوم فى الإسكندرية وقاموا بتدميره كما دمروا المكتبة الكبيرة الملحقه به.

فقلت له : وهل استمر ذلك الاضطهاد طويلاً؟

فقال : استمر الاضطهاد الذى تحول عن المسيحية وأتباعها إلى المصريين الذين ظلوا على عقائدهم القديمة يقدسون سرايس أو أمون ودع وإيزيس وأوزوريس وحورس بعد وفاة ثيودوسيوس الأول طوال عهد خليفته الإمبراطور أوكاديوس الذى وصل به الأمر إلى حد إصدار قرار بتحطيم جميع المعابد فى البلاد، ولكن ذلك الاضطهاد على أهميته لم يك هو



لوحة خشبية - الكنيسة المعلقة

القسطنطينية ضاعف على جموع
المصريين ما كانوا يعانون منه تحت
حكم أباطرة روما من تدهور لكل
صور الحياة على أرضهم، كما أن
تعرض الإمبراطورية البيزنطية لتربص
أعدائها وعلى رأسهم الدولة الفارسية
بحدودها جعل حكومتها عاجزة عن
تحمل أعبائها تجاه سكان ولاياتها
الذين تدهورت معيشتهم بعدما

ذلك الاصطهاد على أهميته لم يك هو
معاناة الوحيدة خلال حكم أسرة
ثيودوسيوس الأول التي كان من
أباطرتها أركاديوس وثيودوسيوس
الثاني وماركيان وأتاستاس الذي
نعيش الآن في عام حكمه السابع.

فقلت له : ماذا تقصد يا نيل؟

فقال : إن الفتن والاضطرابات
وضعف الحكومة المركزية في

تدهورت الزراعة والصناعة والتجارة
على أرضهم.

فقلت له : وهل أصاب أرض مصر
الزراعية نفس التدهور الذى لحق
بصناعاتها وتجارتها منذ بداية القرن
الثالث الميلادى؟

فقال : انتهج الرومان فى تعاملهم
مع أراضى مصر الزراعية سياسة
تختلف عن سياسة البطالة الذين
جمعوا تحت تصرفهم جزءاً كبيراً من
الأراضى كملكية خالصة لهم، حيث
عملت الإدارة الرومانية على التخلص
من أراضى الدولة وتشجيع ملكية
الأفراد وعلى طريق إقرار هذه
السياسة لجأ أباطرة روما إلى التنازل
عن هذه الأراضى بثمن زهيد، مما
أدى إلى ازدياد الملكية الخاصة فى
عصرهم زيادة كبيرة.

فقلت له : وهل استمرت هذه
السياسة قائمة فى مصر تحت حكم
أباطرة القسطنطينية؟

فقال : أجل، فعدا تعديل نظام

الضرائب للأراضى الزراعية فى عهد
دقلديانوس لم يدخل أباطرة
القسطنطينية أى تغييرات مؤثرة على
الزراعة فى مصر، واستمرت الملكية
الفردية الخاصة فى ازدياد تحت
حكمهم، حتى أن أراضى الدولة قد
اختفت تماماً ابتداءً من منتصف
القرن الرابع الميلادى.

فقلت له : وهل استفادت جموع
الزراع المصريين من اختفاء أراضى
الدولة وتحولها إلى ملكية خاصة؟

فقال : إن أكثر هذه الأراضى قد
ذهبت إلى غريباء أجانب قاموا بشرائها
واستغلوا ثروتهم ونفوذهم وضعف
الإدارة البيزنطية فى توسيع رقعة ما
يملكون من أراض على حساب
المساحات الصغيرة التى يملكونها
الزراع المصريون.

فقلت له : وكيف استطاعوا فعل
ذلك يا نيل؟

فقال : لكى تيسر الإدارة البيزنطية
لنفسها طريقة جمع الضرائب فى

القرى المصرية جعلوا مسئولية جمعها
مسئولية جماعية يتحملها جميع سكان
القرية ويلتزمون بتسديد أى عجز فيها،
وفى الوقت الذى ينجح فيه عدد كبير
من أصحاب الاقطاعات الزراعية
عظيمة المساحة بما يمتلكون من قوة
ونفوذ فى التهرب من دفع الضرائب
تحمل صغار الزراع المصريين تحت
تهديد الجند بالتعذيب دفع ضرائب
أصحاب الإقطاعات علاوة على



قطعة من النسيج المصرى - القرن الخامس

ضرائب ما يمتلكون من أراضٍ، ولأن أغلب هؤلاء الزراع البسطاء لم يكونوا قادرين على دفع ما يُقدَّر عليهم من أموال، اضطروا إلى التنازل عن ملكية أراضيهم لأصحاب الإقطاعات نجاة من تحمل مسؤولية دفع الضرائب.

فقلتُ له : لذلك إذن كان اجتماعك مع الزراع المصريين في هذه القرية يائيل.

فقال : أجل يا أبتى، فما ينبغي لأبناء وأحفاد الفراعنة أن يتنازلوا عن ملكية أراضيهم التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم جيلاً من بعد جيل، ليتحولوا من ملاك أحرار إلى مجرد أتباع أجراء لأصحاب الإقطاعات الذين سيطروا على أجزاء كبيرة من أراضى البلاد حتى أن قرى بأسرها صارت ملكاً للسادة وكبار الملاك.

فقلتُ له : وهل تظن أنك ستتجح في الوقوف أمام أصحاب الإقطاعات الزراعية يا نيل؟

فقال : لقد بلغ من سلطان أصحاب الإقطاعات ومنهم صاحب الإقطاع في هذه القرية أن سيطروا على القرى التي توجد بها أراضيهم مكونين لأنفسهم حرساً خاصاً من الجنود المسلحين ومتخذين لأنفسهم محاكم وسجوناً خاصة، لكن ذلك لا يجب أن يمنعني من تنبيه جموع الزراع في بلدى للخطر المتمثل في تنازلهم عن ملكية أراضيهم حتى وإن أدنى هذا إلى تعرضي للمتابع.

لم يستمر حديثي مع نيل بعد ذلك طويلاً، إذ تركته يعاود اجتماعه بالزراع المصريين، بينما انطلقت في طريقى خارجاً من القرية، ولكنى ما كدت أقترُب من حدودها حتى التقف حولى مجموعة من الجند، راح يشير إلى أحدهم قائلاً: هذا الذى يحرض الزراع على التمسك بأراضيهم وعدم التنازل عن ملكيتها.

أسمى «تاريخ»، وجدت منذ أن وجد الإنسان على سطح الأرض، معه عشت خطواته الأولى، وبين تجمعاته سعيت متنقلا من بلد إلى آخر، وطنى حيث يجد الإنسان فى العمل والإبتكار، لأراقب مسيرة أعماله، أحصى أخباره، وأدون إنجازاته يوما من بعد آخر وعاما تلو عام، تعددت زيارتى إلى كل أقطار العالم فكان لبلادكم نصيب وافر من هذه الزيارات، فيها شاهدت قيام أول حضارات الإنسان على أرضه، ولها سجلت الكثير من صفحات البطولات، وسجلات الإنجازات والرقى، واليوم وبعد كل هذه الأعوام الطوال أجلس بينكم لأحدثكم حديث مصر عبر الزمان نسترجع سويا أحداث رحلاتى إلى أرض النهر والأهرامات والحضارة.



حقوق التوزيع فى مصر والعالم محفوظة



للمكتب العربى المعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد - خلف عمر أفندى
ميدان الحجاز - مصر الجديدة - القاهرة
ت: ٢٤٢١٥٢٦

الناشر



«نيل وتاريخ»

جميع حقوق الطبع والتوزيع مملوكة للناشر ويحظر النقل، أو الترجمة، أو الاقتباس من هذه السلسلة فى أى شكل كان جزئياً، أو كلياً بدون إذن خطى من الناشر، وهذه الحقوق محفوظة بالنسبة إلى كل الدول العربية، وقد اتخذت إجراءات التسجيل والحماية فى العالم العربى بموجب الاتفاقيات الدولية لحماية الحقوق الفنية والأدبية.

شخصيتان ملك لمنشورات الغالى وهاتان
الشخصيتان مسجلتان ومحفوظتان ولايجوز
استخدامهما إلا بتصريح خاص من المالك
«منشورات الغالى»



عصر الرومان	عصر الحضارة
عصر وفارس	عصر الدولة
عصر البطلمية	بناء الأهرامات
ميلاد الإسكندرية	غزو رمسيس الأول
السياسة والديبلوماسية	العصر الذهبي
بين روما والإسكندرية	انتصار طيبة
عصر الرومان	تأسيس العصر الطويل
عصر القبطية	عصر التوحيد
عصر البيزنطية	الرحالة
عصر الإسلام	سقوط الدولة الفراعنة



Bibliothèque Mémoires



0308059